«بنت شيخ العربان»... الذات مدخلاً لقراءة التاريخ

ميرال الطحاوي تعيد طرح «سؤال الهوية» عبر البحث هذه المرة

الأربعاء - 15 محرم 1442 هـ - 02 سبتمبر 2020 م رقم العدد [15254]

عزت القمحاوي

لطالما كان موضوع الهوية سؤالاً لروايات الكاتبة المصرية ميرال الطحاوي، قبل أن تتناوله في دراسات أكاديمية. وقد أصدرت من قبل كتابين؛ «محرمات قبلية... المقدس وتخيلاته في المجتمع الرعوي روائياً»، و«الأنثى المقدسة... أساطير المرأة في الصحراء»، ثم كتابها الجديد «بنت شيخ العربان» الصادر مؤخراً عن دار العين بالقاهرة.

يتوسل الكتاب لموضوعه بعنوان شارح «دراسة في التاريخ الثقافي والتراث الشفاهي للعربان في مصر»، لكن الكاتبة لم تُلزم نفسها بالثقافي، بل تعرضت للتاريخ الرسمي، القديم منه والحديث، وخصوصاً ثورة عرابي التي يختلف الباحثون حول كفاءة زعيمها ومسؤوليته في الإخفاق وعلاقته بتدخل الإنجليز واحتلالهم مصر، على الرغم من الهالة التي تحيط بها بسبب التبني الرسمي لها، بالعكس من الإهمال الذي يلف تاريخ ثورة عام 1919 الشعبية.

يبدو الكتاب، وكأن الكاتبة التي تعيش وتعمل في جامعات الولايات المتحدة الأميركية منذ سنوات، أرادت أن تطرح كل الأسئلة التي يمكن أن تساعدها في إيجاد جواب لسؤالها الأساسي؛ سؤال الهوية، وبلغتها هو محاولة لفهم تلك الهوية المشطورة.

هكذا ينطلق الكتاب البحثي، الذي يقع في 336 صفحة، من مدخل ذاتي تماماً، لم تنس فيه الأكاديمية أنها ساردة بالأساس. يصافح القارئَ في أول الكتاب فصلٌ بعنوان «البداية» يقوم مقام المقدمة، وكان من الممكن أن يكون جزءاً من سيرة ذاتية، لكن وظيفته هنا هي الكشف عن الدافع الذاتي الملحّ الذي جعل روائية وأكاديمية في مجال الأدب تضع نفسها في قلب الدراسات التاريخية.

في المدرسة، تجلس الصغيرة بين زميلاتها تعيد عليهم حكايات جدتها «عن عباد وبلاد، وجِمال تخوض الصحاري، تُحرِّك الصغيرات رؤوسهن بحيرة، فُأدرك غرابة عوالمي التي تثير التندر، وتترك المساحات الشائكة بين ما أروي وما أعيش».

وما تعيشه الطفلة هو عيش على الحافة بالمعني الحقيقي، لا المجازي؛ حيث تعيش القبيلة على الحافة بين الصحراء وأول اللون الأخضر الذي تصادفه القبائل النازحة من الجزيرة العربية إلى مصر، وتسميه كتب التاريخ «الحوف الشرقي». الذي سيصبح الآن محافظة الشرقية.

في البيت، تغني الجدة لحفيدتها «ما أنتِ للي يصد عويل ولا أنتِ صيدة للرعيان»، وكثيراً من الأغنيات التي تفتح باب المتخيل عن الفقد والترحال، وسيرة الصحراء التي صارت بعيدة في الجغرافيا والتاريخ.

وتتطلع الطفلة، فلا تجد حولها صيداً أو رعياناً أو غنائم، لكن بنية القبيلة قائمة، وبيوت العائلة متناثرة داخل حوش واحد، ولم تكن الطفلة تدري سبباً لهذا المعمار القبلي الذي يشبه القلاع، هل هو في مواجهة الفضاء الصحراوي أم في مواجهة الذوبان في المجتمع المصري؟

وعندما تعبر الأبواب الضخمة التي تُسيِّج طفولتها، ترى في ذهابها إلى المدرسة بيوت الفلاحين الصغيرة المتشابهة، ينظرونها ويقولون «بنت عربان»، وهو وصف حمَّال أوجه، إذ تربط أصحاب الأرض الأصليين من فلاحي مصر والبدو الوافدين من الجزيرة «البدوان» علاقة ملغزة، كلا الطرفين يحتقر الآخر ويقدسه في الآن ذاته.

«البداوة لم تكن خياراً مكانياً أقدم فيه نفسي كاتبةً لادعاء الجدة أو الغرابة، ولم تكن أرضاً معرفية، وطئتها لأجترّها بسهولة» تكتب ميرال الطحاوي، وكأنها تريد أخيراً أن توضِح نفسها وتشرح ما لم تفهمه «الجماعة الثقافية» المصرية التي بدت ذات يوم شديدة الحساسية تجاه الاختلاف.

عندما يتعلق الأمر بتماسك الجغرافيا والثقافة المصرية، يتحسس كثير من المثقفين من الحديث عن خصوصيات عرقية أو إثنية، سواء أكان ذلك ارتباطاً بالفكر القومي أم دفاعاً عن سلطة تريد دائماً ما تيسر من الأعداء لتأجيل سؤال الديمقراطية. وقد آن الأوان للاعتراف بخطأ التحسس من الأقليات، لأن التنوع داخل الجماعة البشرية هو ما يمنحها غناها، ولا يكون خطراً إلا عند قمع الاختلاف.

وقد تعرّضت ميرال ذات يوم لمثل هذه المواقف عندما تحدَّثت في شهادات بمؤتمرات عن أصولها في الجزيرة العربية، وربما كان هناك من ينظر بتحفظ لخصوصية عالمها الروائي نفسه الذي تجلت فيه تلك العزلة، وتلك الهوية المشطورة.

لم يكن الفتح العربي أول لقاء للبدوان بمصر؛ فالعبور من الصحراء إلى البلد الذي شكَّل دائماً النقيض الثقافي ووجهة الهجرة منذ رحلة أبي الأنبياء إلى مصر. وقد ارتبط العبور بالنبوة والتجارة والحرب واللجوء، حتى إن المؤرخ «سترابون» الذي زار مصر في أوائل العصر الروماني (القرن الأول قبل الميلاد) يقول إن مدينة «قفط» بوسط الصعيد تكاد تكون مدينة عربية.

ولطالما دفع القحط بموجات من البدو النازحين لمصر، بينهم أبناء قبائل شمال الجزيرة العربية بكل عناد المحاربين الذي يتحلون به، وقبائل الجنوب المسالمين الذين اندمج كثير منهم مع المصريين بالتزاوج.

لكن على وجه العموم، ظلت الأغلبية تخشى الذوبان في وعاء ثقافي واحد، وقاومت ما أمكنها هذا الذوبان. وجاء الفتح العربي ليعزز من هذا الوجود ويؤسس لأرستقراطية محاربة، سنّ لها الامتيازات. واستمر الأمر قرنين، حتى بدأ الوعي بالأجناس غير العربية كمكون من مكونات الحكم في الدولة العباسية، التي أصبحت ثقتها في الأجناس الأخرى أقوى من ثقتها في القبائل العربية.

وهذا ما سيفتح الباب للمحاربين المحترفين «المماليك» ليكون لدولتهم وبدورها تاريخ من الاحتراب والثأر مع البدو، والبدو من جهتهم ظلوا ينتهزون فرص

وهذا ما سيفتح الباب للمحاربين المحترفين «المماليك» وسيحون دونهم بدورها تاريخ من الإحن والثأر مع البدو، والبدو من جهتهم صاروا يتنهزون فرص ضعف المماليك أو انشغالهم بالحروب الخارجية ليوسعوا من نفوذهم على من يحيط بهم من الفلاحين.

ولم يصل محمد علي إلى حكم مصر إلا وكانت شوكة العربان قد قويت، يبالغون في الإغارة وفرض الإتاوات، واتسمت سياسته معهم بالتعقل الحازم؛ فمزج بين حملات تأديبهم وبين منحهم الأراضي لتوطينهم ودمجهم في بنيان الدولة الحديثة التي يضع قواعدها.

مع ثورة عرابي، يتقوى الخط الذاتي في الكتاب؛ وتورد ميرال شهادة من عرابي وردت في مذكرات محاميه وصديقه «اللورد بلنت» يوافق فيها بلنت على اعتقاده بأن سعود الطحاوي، جد الكاتبة، من بين من خانوه اعتماداً على أن جد سعود قد انضمّ إلى بونابرت قبل نحو 100 عام من ثورة عرابي.

يمثل التاريخ الرسمي خيطاً ناظماً للكتاب؛ حيث نرى قيام وانهيار نفوذ البدو، على مر التاريخ في المنطقة، وفي مصر تحديداً، بينما لا يغيب الخط الذاتي، إذ كان اسم الجد، صديق دليسبس، سؤالاً آخر من الأسئلة غير المحلولة أمام الكاتبة في طفولتها، بوصفه البدوي الذي التصقت به تهمة الخيانة.

يرسم التاريخ الرسمي، إلى جانب المرويات الشفاهية، صورة شديدة التناقض لشيخ العرب في المخيلة البدوية والمخيلة الشعبية المصرية. وهذه الصورة هي شاغل القسم الثاني في كتاب «بنت شيخ العربان». تنسجم رؤية الفلاح للبدوي، مع صورته في كتب التاريخ القاتمة والدموية في كتب التاريخ، كما جاء عند المقريزي وابن إياس، وكما وصفه ابن خلدون. لكن صورة البدوي عن نفسه غير ذلك تماماً؛ فهو الفارس الشجاع والسيد.

ومن صورة الرجل إلى صورة المرأة التي تخصص لها الكاتبة القسم الثالث من الكتاب، وذلك من خلال غناوة، أو غناء الحب في الشعر الشفاهي النسائي البدوي، الذي دوّنته من أعراس ومناسبات القبيلة، وجمعت شطراً منه من الفيوم ومناطق أخرى من مصر حيث سعت وراء بعض أبناء القبيلة الذين تفرقوا في أكثر من محافظة، بالإضافة إلى ما يتوفر الآن في مواقع نصوص ومقاطع فيديو على شبكة الإنترنت. وتستعين الكاتبة في دراستها بكثير من الدراسات السابقة لنقاد الأدب الفصيح والشعبي، من شوقي ضيف إلى الطاهر لبيب وليلى أبو لغد.

«غناوة العَلَم» وأحياناً «الحجة» هو الاسم الذي يشار به إلى الشعر الشعبي الذي يضم الغزل بين موضوعاته، وتتألف «غناوة العلم» عادة من بيت واحد،

يبدو فيه رثاء الذات والتضرع الرومانتيكي لحبيب مجهول، والمجاز. بينما يبدو غزل «المجاريد» حسياً، ويفصح فيه العاشق بجرأة عن نية الاغواء.

يؤلف الغناوة الرجال، والنساء، وتعيش في مجالسهن، وقد ضمنت المشاعية وغياب اسم المؤلف مرور هذا التراث دون تعارض حاد مع قيم القبيلة التي تضع الشرف في تناقض مع التعبير عن الحب!

وقد يبدو قسم «غناوة الحب في الشعر الشفاهي النسائي البدوي» قطعاً في السياق للوهلة الأولى، لكنه شديد الاتصال بموضوع الكتاب، فهذا الشعر لا ينفتح على جيران، على بعد خطوات من القبيلة، ويبدو ملغزاً تماماً على الفلاحين، وكأنه شيفرة خاصة تحمل تقاليد لا يريد البدوي أن يشاركها مع جار يتقاسم معه المكان، بينما يحن إلى مكان آخر!

أخبار ذات صلة

مصر وصربيا تبحثان مستجدات القضايا الإقليمية والدولية (/home/article/3607301/%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D9%88%D8%B5%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A7-%D8%AA%D8%A8%D8%AD%D8%AB%D8%A7%D9%86-)

مصر تدين تفجير كابل وتدعو لمكافحة العنف (/home/article/3607236/%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%AA%D8%AF%D9%8A%D9%86-%D8%AA%D9%81%D8%AC%D9%8A%D8%B1-%D9%83%D8%A7%D8%A8%D9%84-%D9%88%D8%AA%D8%AF%D8%B9%D9%88-)

مصر: السجن المشدد لبرلماني سابق ورجل أعمال بقضية «الآثار الكبرى» (/home/article/3605231/%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%AC%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B4%D8%AF%D8%AF-)

«الاختيار 3»: قادة «الإخوان» روجوا أنهم لن يتقدموا للرئاسة

(/home/article/3605221/%C2%AB%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AE%D8%AA%D9%8A%D8%A7%D8%B1-3%C2%BB-)

نشرتنا الإخبارية

انقر هنا للاشتراك في نشرتنا الأخبارية المجانية

الأكثر قراءة

1 مذكرة توقيف فرنسية بعد اليابانية بحق كارلوس غصن

(/home/article/3606986/%D9%85%D8%B0%D9%83%D8%B1%D8%A9-%D8%AA%D9%88%D9%82%D9%8A%D9%81-)

2 تحرك إيراني ـ سوري ضد أميركا شرق الفرات

(/home/article/3607001/%D8%AA%D8%AD%D8%B1%D9%83-%D8%A5%D9%8A%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%80-)

3 خبراء يحذّرون من خطر «إيران نووية»

(/home/article/3606981/%D8%AE%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%A1-%D9%8A%D8%AD%D8%B0%D9%91%D8%B1%D9%88%D9%86-)

4 استعداد خليجي لخطوات يمنية تكمل مخرجات المشاورات

4 (https://www.alwasat.ly/news/libya/3606991/%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D8%AE%D9%84%D9%8A%D8%AC%D9%8A-/home)

5 اشتباكات بين فصائل مسلحة في طرابلس (https://www.alwasat.ly/news/libya/3606996/%D8%A7%D8%B4%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D9%83%D8%A7%D8%AA-%D8%A8%D9%8A%D9%86-/home)

اختيارات المحرر

حدود وأسيجة تهدد التنوُّع الحيوي وتغيِّر النُّظم البيئية

home/article/3608611/%D8%AD%D8%AF%D9%88%D8%AF-%D9%88%D8%A3%D8%B3%D9%8A%D8%AC%D8%A9-/)
%D8%AA%D9%87%D8%AF%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%86%D9%88%D9%91%D9%8F%D8%B9-
%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%8A%D9%88%D9%8A-%D9%88%D8%AA%D8%BA%D9%8A%D9%91%D9%90%D8%B1-
(%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%91%D9%8F%D8%B8%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A6%D9%8A%D8%A9

المطاعم المصرية تجتذب العائلات بالعروض الرمضانية

home/article/3609136/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B7%D8%A7%D8%B9%D9%85-/)
%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B5%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%AC%D8%AA%D8%B0%D8%A8-
%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D8%A6%D9%84%D8%A7%D8%AA-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D9%88%D8%B6-
(%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%85%D8%B6%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9

أدريان سميث: متحمسون للفرص التي يوفرها المشهد العمراني في السعودية

home/article/3609181/%D8%A3%D8%AF%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D9%86-%D8%B3%D9%85%D9%8A%D8%AB-/)
%D9%85%D8%AA%D8%AD%D9%85%D8%B3%D9%88%D9%86-%D9%84%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%B5-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%8A-
%D9%8A%D9%88%D9%81%D8%B1%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B4%D9%87%D8%AF-
%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%81%D9%8A-
(%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%B9%D9%88%D8%AF%D9%8A%D8%A9

زئير الليث الشبابي يدوي «آسيوياً»

(/home/article/3609156/%D8%B2%D8%A6%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%8A%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A8%D8%A7%D8%A8%D9%8A-%D9%8A%D8%AF%D9%88%D9%8A-%C2%AB%D8%A2%D8%B3%D9%8A%D9%88%D9%8A%D8%A7%D9%8B%C2%BB)

محكمة مغربية تقضي بعدم الاختصاص في دعوى إيقاف مسلسل «فتح الأندلس» (/home/article/3609071/%D9%85%D8%AD%D9%83%D9%85%D8%A9-%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D9%82%D8%B6%D9%8A-%D8%A8%D8%B9%D8%AF%D9%85-)

حصيلة اللجوء من أوكرانيا تواصل الارتفاع رغم تباطؤ وتيرتها (/home/article/3608881/%D8%AD%D8%B5%D9%8A%D9%84%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%AC%D9%88%D8%A1-)

مقتل 6 أشخاص وجرح آخرين بتفجير إرهابي في الصومال (/home/article/3608826/%D9%85%D9%82%D8%AA%D9%84-6-%D8%A3%D8%B4%D8%AE%D8%A7%D8%B5-%D9%88%D8%AC%D8%B1%D8%AD-%D8%A2%D8%AE%D8%B1%D9%8A%D9%86-)

تعاون بريطاني ـ هندي في البر والبحر والجو والفضاء والإنترنت (/home/article/3608816/%D8%AA%D8%B9%D8%A7%D9%88%D9%86-%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%80-%D9%87%D9%86%D8%AF%D9%8A-%D9%81%D9%8A-)

«الشيوخ» المصري لمراجعة الرقابة على تبرعات الجمعيات الأهلية
(/home/article/3608796/%C2%AB%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D9%88%D8%AE%C2%BB-)

«فاطميون» تستولي على مقرات للنظام السوري عند الحدود مع العراق
(/home/article/3608776/%C2%AB%D9%81%D8%A7%D8%B7%D9%85%D9%8A%D9%88%D9%86%C2%BB-)

شنغهاي تسجل مزيداً من وفيات «كورونا» رغم إجراءات الإغلاق المشددة (/home/article/3608761/%D8%B4%D9%86%D8%BA%D9%87%D8%A7%D9%8A-%D8%AA%D8%B3%D8%AC%D9%84-%D9%85%D8%B2%D9%8A%D8%AF%D8%A7%D9%8B-%D9%85%D9%86-)

«خوارزمية» تساعد على تعديل انطباعات الآخرين
(/home/article/3608631/%C2%AB%D8%AE%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%B2%D9%85%D9%8A%D8%A9%C2%BB-)

فيديو (/home/international/multimedia)

«كولنينغ» نداء الرعاة في السويد

(https://cdn.jwplayer.com/videos/oI5F6Y9y-9mPGCDe7.mp4)

5 شروط لشجار صحي بين الأزواج

(https://cdn.jwplayer.com/videos/gU6TKhn2-9mPGCDe7.mp4)

7 مهارات لتنشئة طفل ناجح

(https://cdn.jwplayer.com/videos/LbDX3Rw4-9mPGCDe7.mp4)

الملابس القديمة سجادا في تونس

(https://cdn.jwplayer.com/videos/JL2Y2cdz-9mPGCDe7.mp4)

(https://www.facebook.com/asharqalawsat.a?ref=ts&fref=ts) (https://twitter.com/aawsat_News)

رئيس التحرير (mailto:eic.office@asharqalawsat.com) | شروط الانتفاع (home/page/129/) | هيئة التحرير (editorial-section/)
الإعلان (http://www.alkhaleejiah.com) | التوزيع (http://www.saudidistribution.com) | الاشتراكات (http://www.saudidistribution.com)

© جميع الحقوق محفوظة للشركة السعودية البريطانية للأبحاث والتسويق وتخضع لشروط وإتفاق الإستخدام